مختصر
جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي

اختصره وعلق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَدِيثُ الثَّامِنُ والثَّلاثُونَ

■ عـن أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ تَعالَـى قَـالَ: مَنْ عَادَى لِـي وَلِيًّا؛ فقَدْ آذَنْتُـهُ بِالحَرْبِ، ومَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَـيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْـتُ عَلَيْهِ، ولَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَـرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ؛ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِـي بِهَا، وإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الشَّرحُ

هذَا الحديثُ تفرَّدَ بإخراجِهِ البُخَارِيُّ دُونَ بقيَّةِ أصحابِ الكُتُبِ، وقدْ قيلَ: «إِنَّه أشرفُ حديثٍ في ذِكْرِ الأولياءِ»![1]

(١) وقد أفرده الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بالشرح في كتابٍ سمَّاه «قَطْر الولي على حديث الولي».

قولُـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَـن عـادَى لِـي وليًّـا؛ فقـدْ آذنتُهُ بالحَرْبِ»:

يَعنِـي: فقـدْ أعلمتُهُ بأنِّي محارِبٌ لهُ؛ حيـثُ كانَ محاربًا لِـي بمعـاداةِ أوليائِي؛ فأوليـاءُ اللهِ تجبُ موالاتُهـم، وتَحرُمُ معاداتُهم؛ كمَا أنَّ أعداءَهُ تجبُ معاداتُهم، وتحرُمُ موالاتُهُم.

واعْلَـمْ أنَّ جميـعَ المعاصِي محاربـةٌ للهِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ فإنَّ مَن عَصَـى اللهَ فقـدْ حارَبَهُ، لكنْ كلَّمـا كانَ الذَّنـبُ أقبحَ؛ كانَ أشـدَّ محاربةً للهِ؛ ولهذَا سَـمَّى اللهُ أَكَلةَ الرِّبَا وقُطَّاعَ الطَّرِيقِ محارِبينَ للهِ تعالَى ورَسُولِهِ؛ لعظيمِ ظُلمِهِم لعبادِهِ، وسعيِهِم بالفسـادِ في بلادِهِ. وكذلكَ معاداةُ أَولِيائِـهِ؛ فإنَّه تعالَى يتولَّى نصرةَ أوليائِهِ، ويحبُّهُم، ويؤيِّدُهُم؛ فمَن عادَاهُم؛ فقدْ عادَى اللهَ وحارَبَهُ.

قولُـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومَـا تقـرَّبَ إليَّ عَبْـدِي بمِثْـلِ أداءِ مَا افترضتُ عليهِ، ولَا يزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ؛ حتَّى أُحِبَّهُ»:

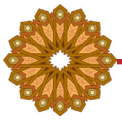

لمّا ذكرَ أنَّ معاداةَ أوليائِهِ محاربةٌ لهُ؛ ذَكَرَ بعدَ ذلكَ وصفَ أوليائِهِ الَّذِينَ تحرُمُ معاداتُهم، وتجبُ موالاتُهُم؛ فذكرَ مَا يُتقرَّبُ بهِ إليهِ.

وأصلُ (الولايةِ): القُربُ، وأصلُ (العداوةِ): البُعْدُ؛ فـ(أولياءُ اللهِ): هُم الَّذِينَ يتقرَّبونَ إليهِ بمَا يُقرِّبُهم مِنهُ، و(أعداؤهُ): هم الَّذِينَ أبعدَهُم عَنهُ؛ بأعمالِهم المقتضيةِ لطردِهِم وإبعادِهِم.

۞ فقَسَّمَ أولياءَهُ المقرَّبينَ إلَى قِسْمَينِ:

أَحدهما: مَن تقرَّب إليهِ بأداءِ الفرائِضِ، ويشملُ ذلك فعلَ الواجباتِ، وتركَ المحرَّماتِ؛ لأن ذلكَ كلَّهُ مِن فرائِضِ اللهِ الَّتِي افترضَهَا علَى عبادِهِ.

والثَّاني: مَن تقرَّبَ إليهِ بعدَ الفرائِضِ بالنَّوافِلِ.

فظهرَ بذلكَ أنَّه لَا طريقَ يوصلُ إلَى التَّقرُّبِ إلَى اللهِ تعالَى، وولايتِهِ، ومحبَّتِهِ؛ سِوَى طاعتِهِ الَّتِي شرعَهَا علَى لسانِ رَسُولِهِ؛ فمَنِ ادَّعَى ولايةَ اللهِ، والتَّقَرُّبَ إليهِ، ومحبَّتَهُ، بغيرِ هذِهِ الطَّريقِ؛ تبيَّنَ أنَّه كاذبٌ فِي دعواهُ؛ كمَا كانَ المشركونَ يتقرَّبونَ إلَى اللهِ تعالَى بعبادةِ مَن يعبدونَهُ مِن دونِهِ، كمَا حكَى اللهُ عَنهُم أنَّهم قالُوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الزمر: ٣][1]، وكمَا حكَى عَن اليهودِ والنَّصارَى أنَّهم قالُوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨]، معَ إصرارِهِم علَى تكذيبِ رُسُلِهِ، وارتكابِ نواهيهِ، وتركِ فرائضِهِ!

(١) ومِن ذَلكَ مَا يفعلُهُ بعضُ الجُهَّالِ؛ مِن اعتقادِهِم بأنَّ الأولياءَ فِي قبورِهِم ينفعونَ أَو يَضُرُّونَ؛ فتراهُم يدعونَهم، ويستغيثونَ بِهم، ويذبحونَ لَهم القرابينَ، ويسألونَهم الشَّفاعةَ وسائرَ الحوائجِ! وهذَا شِرْكٌ أكبرُ؛ يخرجُ صاحبَهُ مِن الإسلامِ إلَى الوثنيَّةِ؛ والأدِلَّةُ علَى ذلكَ أكثرُ مِن أَن تُحصَرَ، وأشهرُ مِن أَن تُذكَرَ! ومَن عظَّمَ اللهَ سُبحانَهُ؛ انقطعتْ مِن قلبِهِ كلُّ علائقِ الشِّرْكِ، ومَن تدبَّرَ القرآنَ؛ تيقَّنَ بذلكَ، ولله الحمدُ، ومِنهُ نستمدُّ الهدايةَ والثَّباتَ علَى الحقِّ؛ آمينَ.

فلذلكَ ذكرَ في هذَا الحديثِ أنَّ أولياءَ اللهِ علَى دَرَجَتَينِ:

إحداهما: المتقرِّبون بالفرائض، وهذه درجةُ المقتصدين أصحاب اليمين.

الثَّانية: درجةُ السَّابقينَ المقرَّبينَ؛ وهُمُ: الَّذِينَ تقرَّبُوا إلَى اللهِ بعَـد الفرائضِ بالاجتهادِ في نوافِلِ الطَّاعاتِ، والانكفافِ عَن دقائقِ المكروهاتِ بالـوَرَعِ؛ وذلكَ يوجبُ للعبدِ محبَّةَ اللهِ؛ كمَـا قالَ: «ولَا يزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إلَـيَّ بالنَّوافِلِ؛ حتَّى أُحِبَّـهُ»؛ فمَـنْ أحبَّهُ اللهُ؛ رزقَـهُ محبَّتَهُ، وطاعتَهُ، والاشـتغالَ بذِكْـرِهِ؛ فأوجبَ ذلكَ القُرْبَ مِنـهُ، والزُّلفَى لَدَيْهِ، والحظوةَ عِندَهُ.

قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإذَا أحببتُه؛ كنتُ سمعَهُ الَّذِي يسمعُ بهِ، وبصرَهُ الَّذِي يبصرُ بهِ، ويدَهُ الَّتِي يبطشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يمشِي بِهَا»:

المـرادُ بهـذَا الـكلام: أنَّ مَـن اجتهـدَ بالتَّقـرُّب إلَـى اللهِ بالفرائِضِ، ثُمَّ بالنَّوافِلِ؛ قرَّبَهُ إليهِ، ورقَّاه مِن درجةِ الإيمانِ إلَى درجةِ الإحسـانِ؛ فيصيرُ يعبدُ اللهَ علَى الحضورِ والمراقبةِ كأنَّه يرَاهُ؛ فيمتلئُ قلبُهُ بمعرفةِ اللهِ تعالَى، ومحبَّتِهِ، وعظمتِهِ، وخوفِهِ، ومهابتِـهِ، وإجلالِهِ، والأُنسِ بِهِ، والشَّـوقِ إليهِ؛ حتَّى يصيرَ هذَا الَّذِي فِي قلبِهِ مِن المعرفةِ مُشاهِدًا لهُ بعينِ البصيرَةِ.

فمتَى امتلأَ القلبُ بعظمةِ اللهِ تعالَى؛ محَا ذلكَ مِن القلبِ كلَّ مَا سِوَاهُ، ولَم يبقَ للعَبْدِ شيْءٌ مِن نفسِهِ وهوَاهُ، ولَا إرادةَ إلَّا لمَـا يريدُهُ مِنهُ مولَاهُ! فحينَئذٍ؛ لَا ينطُـق العبدُ إلَّا بذِكْرِهِ، ولَا يتحرَّكُ إلَّا بأمرِهِ، فإنْ نَطَقَ نَطَقَ باللهِ، وإنْ سَمِعَ سَمِعَ بِهِ، وإنْ نَظَـرَ نَظَرَ بِهِ، وإنْ بَطَـشَ بَطَشَ بِهِ! فهذَا هُوَ المرادُ بقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كنتُ سـمعَهُ الَّذِي يسـمعُ بِهِ، وبصرَهُ الَّذِي يُبصرُ بِهِ، ويدَهُ الَّتِي يَبطشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يمشِي بِهَا».

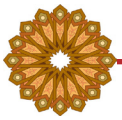

ومَـن أشـارَ إلَى غيـرِ هذَا؛ فإنَّما يشـيرُ إلَـى الإلحادِ مِن الحُلُولِ أَو الاتِّحادِ! واللهُ ورسولُهُ بريئانِ مِنهُ.

قولُـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولئـنْ سـألَنِي؛ لأعطينَّـهُ، ولئِـنْ استعاذَنِي؛ لأُعيذَنَّهُ»:

يَعنِي: أنَّ هذَا المَحبوبَ لهُ عِندَ اللهِ منزلةٌ خاصَّةٌ؛ تقتَضِي أنَّه إذَا سـألَ اللهَ شـيئًا؛ أعطاهُ إيَّاهُ، وإن استعاذَ رَبَّهُ مِن شيْءٍ؛ أعاذَهُ منهُ، وإن دعاهُ أجابَـهُ؛ فيصيرُ مجابَ الدَّعْوَةِ؛ لكرامَتِهِ علَى رَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وقـدْ كانَ كثيـرٌ مِـن السَّـلَفِ الصَّالِـحِ معروفًـا بإجابةِ الدَّعْوَةِ؛ وكانَ سـعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ مجابَ الدَّعْوَةِ؛ فكذبَ عليـهِ رَجُلٌ؛ فقالَ: «اللَّهُمَّ إنْ كانَ كاذبًا؛ فأَعْم بصرَهُ، وأَطِلْ عُمـرَهُ، وعَرِّضْهُ للفِتَـنِ»! فأصابَ الرَّجُلَ ذلـكَ كلُّهُ؛ فكانَ يتعرَّضُ للجوارِي فِي السِّككِ؛ ويقولُ: «شيخٌ كبيرٌ، مفتونٌ،

أصابتنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ»[(١)]! ودَعَا علَى رَجُلٍ سَمِعَهُ يشتمُ عليًّا؛ فمَا برحَ مِن مكانِهِ حتَّى جاءَ بعيرٌ نادٌّ؛ فخبطَهُ بيدَيْهِ ورِجْلَيْهِ؛ حتَّى قتلَهُ!

ونازعتِ امرأةُ سعيدَ بنَ زيدٍ في أرضٍ لهُ؛ فادَّعَتْ أنَّه أخذَ مِنهَا أرضَهـا؛ فقالَ: «اللَّهُمَّ إنْ كانتْ كاذبـةً؛ فأَعْمِ بصرَهَا، واقتلْهَا في أرضِهَا»؛ فعَمِيَتْ، وبينَما هِيَ ذاتَ ليلةٍ تمشِـي في أرضِهَا؛ إذْ وقعتْ في بئرٍ فِيهَا؛ فماتَتْ[(٢)]!

❋❋❋

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٧٥٥). ومعنى قولِهِ: «فكذبَ عليهِ رَجُلٌ»؛ أَي: أَنَّه اتَّهمَه كذبًا وبُهتانًا.

(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (١٦١٠). وانظر الأصل «جامع العلوم والحكم»؛ فقدْ أوردَ المصنِّفُ فيه جملةً صالحةً مِن أخبارِ مُجابِي الدُّعاءِ.